الطبيعيون على أنها نسخ الموجودات كما تنسخ آلة التصوير. ويرى الطبيعيون أن هذا النسخ هو العدل كل العدل في الفن؛ إذ يقول «فلوبير» في إحدى رسائله إلى الكاتبة الفرنسية «جورج صاند»: «إني لا أريد حباً أو كراهية، لا شفقة ولا غضباً... ألم يئن الأوان بعد ليحل العدل مكانه في ميدان الفن؟ إن نزاهة الوصف عندئذ يصبح لها حلال القانون»[٢٣] وقد طبق فلوبير مفهومه هذا أحسن تطبيق في روايته «مدام بوفاري»[٢٤].

وقد كان لهذه النزعة آثار سيئة في كتابات الطبيعيين؛ فالأوصاف عندهم أصبحت منفصلة عن مصائر الشخصيات التي يقدمونها انفصالاً يكاد يكون تاماً، على عكس ما نجده عند الواقعيين النقديين. إن الوصف عند النقديين لا يتخذ غاية في حد ذاته، بل يتخذ وسيلة للإيحاء بالحالة النفسية للشخصيات، فنحن عندما نقرأ وصف بالزاك لغرفة الطعام في فندق السيدة «فوكه»: «كانت غرفة الطعام هذه مصفحة كلها بالخشب، ومطلية بلون لم يعد معروفاً اليوم لتراكم الغبار عليه. هناك خزانات مطبخ لزجة عليها زجاجات كامدة اللون، وأكداس صحون خزفية، وفي إحدى الزوايا صندوقة ذات أدراج منمرة تحفظ فيها فوط الضيوف، وهناك بعض قطع أثاث بطل استعمالها في عصرنا هذا فكأنها أنقاض حضارة بائدة، فترى، مثلاً، ميزاناً للجو يخرج منه أرنب كلما هطل المطر، ونقوشاً شنيعة تذهب بالشهية محاطة بأطر من خشب أسود مطلي، تتخلله خطوط كانت مذهبة، وساعة حائط إطارها من صوف مرصع بنحاس، ومقلى ذات لون أخضر، ومناديل زيتية يمتزج عليها الغبار بالزيت، وطاولة طويلة مغطاة بمشمع قذر تستطيع أن تكتب اسمك عليه بإصبعك»[٢٥]. أقول: إننا عندما نقرأ هذا الوصف المفصل نستطيع أن نحزر تلك الحياة السيئة التي يحياها سكان الفندق من أمثال العجوز «غوريو» و(راستنياك»، والآنسة «تايفر»، وغيرهم ممن قلب لهم الدهر ظهر المجن. وهذا ما يقال في وصف بيت «غرانده» الريفي الذي نستوحي من خلاله تلك العزلة وذلك الشظف الذي كانت تعاني منه الأسرة[٢٦]، وكل هذا يدل على مدى براعة النقديين في الربط